كانت ابنتي تبكي بصوتها الرفيع الملء بالمشرحة ، وتملأ جو الحجرة الصغيرة العارية بالألم والأسى .

وتحرك بقية الأطفال في رقودهم ، وظهرت سيقانهم وأذرعهم عارية تحت الغطاء الممزق ، وصاح الولد مرة ، ثم تمتم بعدة ألفاظ غير مفهومة ، وأخيرا ، أدار وجهه المحانق وعاد للنوم من جديد .

أما زينب ، أخته الكبيرة ذات العشرة أعوام ، فقد جلست فجأة وهي تفرك عينيها بظهر يدها ، ثم تحك فروة رأسها بشدة حتى لتكاد تدميها .

وعندما استكملت اجراءات يقظتها التفتت لأختها الصغيرة وأخذت تربت ظهرها بيدها في حركة رتيبة .

لكن الصغيرة ، الشيطانة ، استمرت في البكاء ، بل يبدو أنها كانت تدرك أن أختها تحاول خداعها حتى تسكت ، لقد كانت تحتاج الى طعام .. الى لبن الأم ، لا الى ريق على الظهر أو عناء ...

انها لم تذق طعم اللبن منذ ثلاثة أيام وهي أول يوم أحضرتها أختها الى حارتنا لارضاعها ، لكن الصغيرة رفضت بشدة وأخذت تصيح وتبكي وقالت الحارة وهي تعيد تديها الى صدر حلمائها .

ـ انها تريد أمها .. حتى الحيوان الصغير يعرف امه يا ابنتي .

وبكت زينب قهرا وذلا وهي تسب الصغيرة وتهدد بالقائها في الطريق .

ـ لماذا لم تأخذك معها الى الداهية التي ذهبت اليها ؟

وأخيرا ، تعلق ذهن زينب عن حيلة ربما تكون أكثر من سابقاتها .. أحضرت كسرة من الخبز وغمستها في الماء حتى أصبحت كالعجينة ثم وضعتها في فم الصغيرة ، في أول مرة لعطفها وعادت تبكي لكنها مع مرور الوقت وتحكم الجوع اضطرت الى بلعها .

كانت زينب تحاول جاهدة القيام بكل ما كانت تقوم به الأم لأبنائها .. بل وكانت الصغيرة تكافح ما استطاعت حتى لاتشعر انا أيضا بغياب أمها .

كانت تصحو في الفجر ، كما كانت تفعل نهاية ـ روحتي ـ وتحمل صفيحة المياه لتملأها من الحنفية العمومية .. وتعمل زينب معجنات الشاي وتوقد وابور الجاز .. وأخيرا كانت تقترب مني وتهز كتفي بيدها الصغيرة في رفق .. وعندما تفشل هذه المحاولات كانت تناديني بصوت منخفض يصلو شيئا فشيئا حتى أرد عليها .

وعندما تراني وقد جلست على باب الحجرة كانت تحمل بعض الماء لتصب في يدي لأغسل عن وجهي آثار طلاء الذيل .

واخيرا ، كانت زينب تقدم لي مع كوب الشاي ماعندنا من بقايا الطعام ، لقيمات الخبز الجاف وفتات الجبن .

وعندما احضر عربة الخضروات الفارغة وابدا سيري نحو السوق كانت زينب تقف على الباب وهي تردد ما اعتادت امها ان تردده من قبل .

ـ ربنا يفتحها في وجهك .. ربنا يسهل لك .. نهارك ابيض ان شاء الله ـ

في أول مرة همست بالعودة لصرخها أو سبها ، هذه الصغيرة حتى هذا لانتساه لقد كانت كلماتها تمزق قلبي، وتذكرني

ـ مع الصباح ـ بهروب امها . كل ما كانت تفعله هذه الصغيرة حتى لا اشعر بغياب امها كان يذكرني اكثر بما حدث، ولا يترك لي فرصة لنسيانه ان كان من الممكن نسيان شيء كهذا .

فجأة ، اختفت زوجتي ، ام الاطفال هربت المراة بعد عشر سنوات طويلة ، ودون سبب معقول . لم اكن قد ضربتها منذ عدة أيام ، بل ولم اكن قد وجهت اليها كلمة لوم او سب .

ويحيل الى أن علاقتنا لم تكن ابدا مثل ماكانت عليه طوال الاسبوع الذي سبق هربها .لو اننا كنا نعيش هكذا على الدوام لكانت حياتنا اسعد من حياة كل الناس .. اسعد حتى من حياة الاغنياء الذين يعيشون في احياء من القاهرة لايمكن السير فيها بعربة الخضار لكنها كانت دائمة الشكوى . وما من مرة حضرت الى المنزل مع الغروب بعد تجوالي الطويل في الشوارع والحارات الا وطلبت مني شيئا لايمكن احضاره ، أو بدأت في الشكوى .

هي تعرف انني أسرح بالخضار ، وان رزقي ـ كل يوم ـ على الله . يوم عشرة ويوم عشرين ، كيف يمكنني اذن ان احملها تعيش كزوجات بعض جيراننا في الحارة ، احدهم عامل في مصنع سبيع بقبض ثلاثة عشر جنيها ، والثاني كناس في البلدية يقبض بالشهر ايضا عشرة جنيهات وكسور .. كل جيراني تقريبا هكذا .

لكنني ابيع الخضار .. منذ زمن طويل .. قبل أن أتزوجها بسنوات وكنت ـ قبل هذا ـ أزرع الارض لكن الزرع لم يكن يفيد اصحابه فتركته الى القاهرة .

كيف يمكنني أن احملها تعيش كجيراننا ؟ لست ادري !

يا ست الناس .. انا لاأقبض ماهية .

هكذا كنت اردد على سمعها حتى تصمت عن الشكوى ، لكنها كانت تريد وتريد . ثم تعدد طلباتها من جديد . جلباب لها وملابس للاطفال وخضروات لتطبخ كما تفعل بقية الزوجات .. لكن مادا ابيع اذا كنا سنأكل بطاطس .. وكوسة ؟ ومادا يأكل سكان الشوارع الكبيرة والعمارات الضخمة ؟

وكنت اشرح لها واعيد تفهيمها مرة

بعد أخرى .. لكنها كانت ترد في صفاقة امرة بعد الاخرى .

ـ أنت الرجل .. أنت المسئول عن طعام أولادك .

وعند هذا الحد كنت أقوم لها لأعطيها جرعة الدواء ، دواء كثرة الكلام .. والصفاقة ، عدة صفعات أتبعها بعدد من الركلات تحملها تتكوم بجوار الحائط .

لكن يبدو ان زوجتي ادمنت الدواء شيئا فشيئا ، فقد كانت تعرف دائما ما ينتظرها لكنها لم تكن تتوقف عن الكلام .. تريد هذا .. وتريد ذاك .. زوج فهيمة أحضر لها .. وابو محمود اشترى . ونحن نريد ...

ـ من أين ؟ هل أضرب الارض لتنتج بطيخا ؟

وكان ضربها أهون علي دائما من انتاج البطيخ .

انها تعرف الارهاق الشديد الذي يصيب جسدي كله من التجوال الطويل ومن دفع العربة ومن النداء على البامية والطماطم والبصل .

كانت قدماي تتورمان في البداية عندما هجرت من الريف الى القاهرة . وكانت أكتافي تكاد تنفصل كل ناحية ... ثم شيئا فشيئا تعود جسمي كله على رحلة الشقاء .. كل يوم .

وكنت احتمل كل هذا من أجلها ومن أجل الاطفال . وهل كان في مقدوري فعل شيء آخر ؟

ومع هذا استطاع ان يستميل الضحك على دقتها بعدة كلمات .

لابد انه كان يردد على سمعها كلمات الحب والغرام ، وكان يقنعها بانها جميلة وحلوة . ليس هناك من سبب آخر ..

وليس من المعقول أن تكون قد هربت مع سيكري متحول من أجل ماله وغناه !! ثم ليس من الطبيعي أن تترك الأم اطفالها من أجل المال .

وتجلس رينب ـ امامي وانا أتناول طعامي ، وتحاول تحديثها السادج دفعي الى الكلام ...

ـ كيف كان يومك ؟ هل بعت كل ماكان معك من خضروات ؟

ـ هل تريد شيئا آخر ..؟

ـ هل اصبح لك كونا من الساق ؟

وأصمت طويلا حتى تياس الصغيرة ثم اسألها عن اخوتها .. ماذا أكلوا ؟ وهل حافظت عليهم من الطريق ؟ ومن غسل ملابسهم ؟ وهل أحفت عليهم الثقاب حتى لايلعبوا بمحتوياتها ؟

لم أكن أفكر في كل هذه الاشياء من قبل ، لكن ، كان على في تلك الايام رعاية الاطفال أيضا ، رضيعهم وكبيرهم .

وكنت أعود من تجوالي الطويل لأجد الطفلة الرضيعة قد بكت حتى تورمت عيناها ، ولاجد ابني الوحيد قد أكل نصف ماعلى الارض من طوب ورمال ..

وكان عقل بسرح ، وقدماي تسيران على أرض الطريق ، في مصير هؤلاء الاطفال . ماالذي سيقوله لهم الناس

بعد أن يكبروا ؟ وماالذى أقوله أنا لهم عندما يسألون عن امهم ؟

ولم يكن تفكيرى يتوقف فى امرى أنا ايضـــا ، كيف أوفح رأسى بين الجيران وقد تركتنى امرأتى ، هربت ... مع حبيب ! ؟

لكن غيابها لم يستمر ، ثلاثة أيام فقط مرت على كثلاثة اعوام ، ثلاثة أعوام من الشقاء ....

فى مســـاء اليوم الثـــالث عادت روحتى .

فجأة كانت تقف على باب الغرفة فى تردد ورهبة ، تنتظر اذنا بالدخول . كانت تتوقع ان أقابلها بالصـــياح والسب ثم بجرعة كبيرة من الضرب ، أو حتى بالقتل . لكننى لم أفعل شيئا من هذا .

كل ما صدر منى فى ذلك الوقت كان .... الصمت والسكون . كأننى لم اعرفها من قبل ، أو كأنها لم تهرب مع رجل آخر .

ان انفعالاتى واحاسيسى لم تتحرك فى اى اتجـاه ، وكان عقـلى كالبركة الراكدة .

وازداد اطمئنـانها فى هذا السكون فتقدمت خطـوات الى داخل الحجـرة . وكانت زينب اول من تحـــرك عقـله للتصرف . وقفت على اقدامهـا وتسمرت لأنها كانت ستهجم بصرخها ثم قالت فى همس واضح ...

ـ اين كنت ؟ ولمـاذا عدت ... كنا فى راحة بدونك ... ؟

ونظرت امرأتى الى ابنتها فى انكسار ساعات ثم جلست الى جـوار الصغيرين فى هدوء . ورفعت المرأة ابنتها الرضيعة الى صدرها ثم تناولت ندبها من خلف الجلباب والقمته فم الصغيرة .

وتململت ابنتى فى نومها ثم سرعان ما بدأت تستجلب لبن أمها وهى تحرك اقدامها فى لذة وسرور عميقين .

وصمتت المرأة ابنها بذراعها الآخر ثم نظرت الى زينب طـــويلا فى صمت واخيرا خفضت عينيهـــا الى الارض فى انكسار .

ولا ادرى ما الذى كان يشغل ضمير زينب وهى تعـود للتحرش بأمهـا من جديد كأنما تريد طردها وابعادها عن المنزل .

ـ لمـاذا عدت ثانية ؟ انك لا تريدين الحياة معنا فما الذى أتى بك ؟ ولماذا اتعبتنا ان كنت لا ترغبين فينا ؟

وحاولت امرأتى ان تمد يدها لتلمس زينب وعيناها تنضحان بالأسى والحنان والحب ـ لكن زينب أزاحت يد امها فى غضب وكأنما تحمل هذه اليد مرضـــا يعدى .

ثم عادت تقول فى قسوة ...

ـ لو كنت مكان ابى لطردتك الآن .

واقتربت زينب منها قليلا ـ وكأنما وجـدت فرصـــة تتيح لهـا مزيدا من التحرش بأمها ...

اتركى أختى ... لا تلمسى اخى ... انهم ليسوا اولادك .

ثم صاحت ريب في امها ...

ـ اتركي اختي ، لا ترضعيها من لبنك ...

وتقدمت ريب لتنزع الصغيرة من بين يدي امها لكن المرأة تشبثت بابنتها الصغيرة ثم احدث تمسح بيدها الاخرى رأس ابنتها ريب كانما تترضاها وكان وجهها ينطق بالضعف والحنان وهي تنظر الى ريب في حب وألم وندم وترقب ..

وكلما أزاحت ريب يد امها عنها عادت تلك تمسح وجهها ورأسها وكانما حدثت المرأة ريب اليها ، او كانما اتحدثت ريب الى امها لانها فجأة كانت تسقط باكية في حجر امها وهي تنشج بصوت مرتفع وجسدها كله يرتعد بشدة .

ومالت امرأتي على ريب تقبلها وتبكي بينما طوقتها ريب ـ هي الاخرى ـ بذراعيها بشدة واحدت تقبلها في وجهها وعنقها وشعرها حيثما اتفق ... وكانت الاثنتان تبكيان في الم ، بكاء يملؤه العاطفة ، وريب ترده ...

ـ لا تتركينا مرة اخرى .. ابدا ..

ورقد ابنائي تحت جناح امهم فراريج صغيرة ، وهم يتشبثون بها كانما يخشون ان تذهب عنهم مرة اخرى .

اما انا فقد انتحيت ركنا بعيدا ورفعت مفتوح العينين في الظلام افكر ...

ـ ماذا يجب علي ان أفعل ؟

وفجأة احسست بشفتي حارتين يخالطهما الدموع والندم تقبلان فوق يدي . وأخذت امرأتي تقبل يدي مرات ومرات وجسدها يهتز بعنف من اثر نشيجها المكتوم .

وكان عقلي يراودني على طردها او ضربها وابعادها ، او حتى خنقها بيدي في الظلام .

لكنني بدلا من هذا كله مددت ذراعي وجذبتها الى فانكمشت في صدري كالقطة الأليفة .

وعندما خرجت نصرية الحصار في الصباح وقفت امرأتي على باب الحجرة وأخذت تدعو لي كعادتها . ولقد احسست من نبرات صوتها في ذلك الوقت بان كلماتها هذه أكثر اخلاصا من جميع الدعوات التي سبق ان رددتها طوال عشرتنا الماضية .